بقلم: إنعام رعد

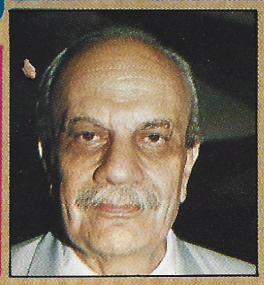

اليوبيل الذهبي: عيد الانتصار للمبادىء

اليوبيل الذهبي لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي، ليس مجرد نصف قرن انقضى على التأسيس، بل مسيرة نضالية طويلة ومثمرة توّجت بربع قرن من الانجازات القومية والعمرانية والانمائية تحققت في ظل قيادة الرئيس حافظ الاسد التي نقلت سورية من منطقة تصارع نفوذ عالمي واقليمي الى قوة اقليمية تصد الهجمات والغزوات عن المنطقة وتشكّل مركز قرارها القومي بل تشكل الثقل والعقل الاستراتيجي الفاعل في المنطقة العربية.

وما تحقق في سورية من انجازات خلال اربعة وثلاثين عاماً بعد ثورة آذار وخلال ربع قرن ونيف بعد الحركة التصحيحية كثير، ويمكن الاشارة الى اهم معالمه. انما هذا الكثير لم يكن انجازات يتمتع بها ابناء الجمهورية العربية السورية وحدهم بل انعكست قوة لكل العرب لا سيما في نطاق المشرق العربي.

ذلك ان الرئيس الاسد، بنظرته القومية، اعتبر سورية «قلعة الصمود وحصن الدفاع عن قضايا الامة وعن المستقبل والمصير. قوتنا في هذا القطر، قوة لامتنا، وصمودنا هو صمود الامة. بهذا الصمود نقضي على المؤامرات المعادية وندحر خطط الاعداء وبه ننتصر وتنتصر الامة». هذا هو المفهوم القومي للانجازات.

ان النسبة العالية من النموّ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والدفاعي التي عرفتها الجمهورية العربية السورية خلال هذه الفترة، تتحدث بارقام ووقائع وحقائق عن قفزة كبرى.

اولاً: بالجامعات وفروعها التي انتشرت في كل مدن الجمهورية وعدد الطلاب الذي تضاعف اضعافاً واضعافاً.

ثانياً: من بلد يعاني من عجز غذائي الى بلد يتمتع بفائض غذائي يصدر القمح والحبوب وتمتلىء اهراؤه بمخزون على الاقل لسنة كاملة. وهو ما يندر له مثيل في الدول النامية عامة وفي الدول العربية التي تعاني من الفجوة الغذائية وبمعظمها خاصة.

ولقد تحقق هذا الانجاز المميز، رغم ظروف بالغة الصعوبة، من شح المياه، من عبث تركيا بمياه الفرات ودجلة، من اغتصاب اسرائيل لمنابع المياه في الجولان. لكن التخطيط والعمل الدؤوب فجّرا من الارض ينابيع واقيمت سدود واحدثت ثورة زراعية مميزة.

وكذلك كان شأن الصناعة حيث نمت واصبحت الصناعة السورية في العديد من المجالات، تصدر وتنافس في الخارج لها اسواقها كما تسدّ الكثير من حاجات الاستهلاك المحلي.

ولقد ربطت المحافظات بل آخر المدن والقرى بشبكة طرق ومواصلات وانتشرت فيها المستشفيات والمدارس ودور الثقافة بحيث تحقق انماء متوازن متكامل. وارتفعت نسبة المناعة الصحية وازداد السكان عدداً وتوعية بمكافحة الامية وانتشار التعليم والتعليم العالي.

وحقق الحكم الانتقال الى نمط من التعددية السياسية والاقتصادية بتؤدة جنّبته قفزة البيروستريكا في المجهول.

والى هذا كله بنت سورية جيشاً قومياً يعتز به وبانجازاته، وأبرزها حرب تشرين المجيدة التي هزت أركان الكيان الصهيوني وانتزعت منه المبادرة وحطمت اسطورة «الجيش الذي لا يقهر» وكادت تتحوّل الى حرب تحريرية لولا الدفرسوار السياسي والعسكري على الجبهة الجنوبية.

وبعد حرب الجولان، وحرب الاستنزاف التي اثخنت العدو بالجراح، كان الصمود في لبنان في وجه الغزو الاسرائيلي في ١٩٨٢. والفضل ما شهدت به الاعداء. فقد صدر اكثر من كتاب اسرائيلي يتحدث عن اقتحامية القوات السورية وشجاعتها. ولقد امتزجت دماء شهدائها الابطال بدماء المقاومين من الاحزاب القومية والوطنية في معركة العز التي دُحرت فيها اسرائيل وانكفأت الى الشريط المحتل حيث تستنزفها المقاومة الباسلة.

نذكر وباعتزاز رسالة الرئيس الاسد الى اللواء ٨٥ في بيروت ان يدافعوا عن عاصمة لبنان وان يستشهدوا او ينتصروا.

الا ان الانجاز المميز للقوات العربية السورية كان دورها في مساعدة لبنان على انهاء الحرب الاهلية وتثبيت السلم الاهلي حيث عاونت الجيش اللبناني الفتي الذي اعيد توحيده بقيادة العماد لحود على انجاز هذه المهمة التي نقلت لبنان من بلوى الدمار الى امل الاعمار.

وكان الامتحان الاخير الذي سقط فيه كثيرون ورسب عديدون، لكن قيادة الرئيس الاسد سجلت للامة معها فوزاً مبيناً. عنيت سنوات المفاوضات وبروز المشاريع الشرق اوسطية وتوقيع المعاهدات والاتفاقات، والتطبيع الذي سبق التوقيع.

سنوات ست ودمشق كالطود الشامخ تتكسر على جنباتها الانواء. حنكة في التعاطي استحضرت القانون الدولي بابداع وتحصنت بالشرعية الدولية لتواجه شرعة الغاب الدولية التي شن العدو وبمؤازرة حليفه الاميركي هجومه على المنطقة بها. الشرعية الدولية بقراراتها لم تكن منصفة كل الانصاف لامتنا ولا محققة لحقوقنا التاريخية، ولكنها نصّت على زوال الاحتلال ومنع الاستيطان، والبراعة كانت انه بدل ان تحاصر قضيتنا بالشرعية الدولية، حوصر الاغتصاب والاحتلال الصهيونيان بالشرعية الدولية في وجه جموح الاغتصاب والعدوان والتنكر لابسط حقوق الانسان.

شرم الشيخ شهدت تحالفاً دولياً ضد سوريا لعزلها ولبنان. وتفاهم نيسان شهد انحياز شرم الشيخ وصياغة قيادة الرئيس الاسد لتفاهم نيسان الذي حفظ المقاومة وصان المدنيين باتفاق دولي اقليمي سوريا مهندسته وشريكة فيه.

واحتشد وزراء خارجية الدول الكبرى في دمشق قبل ان ابصر التفاهم النور، بمن فيهم وزير خارجية الولايات المتحدة كريستوفر الذي لم يحظ في احدى جولاته بالمقابلة.

لقد كانت هذه المواقف موضع اعتزاز المقاومين في لبنان وفلسطين، وموضع تأييد الشعوب العربية باحزابها ونقاباتها واتحاداتها المهنية والثقافية، بكل مؤسسات المجتمع الاهلي. وقد عبرت عن ذلك في مؤتمراتها من صنعاء الى الدار البيضاء الى القاهرة وقبل كل هؤلاء لبنان الصامد.

وفي هذا اليوم بالذات، ثمّة قيمة هي قيمة القيم، وهي ان حزب البعث العربي الاشتراكي يحتفل بيوبيله الذهبي، وقد تأكد في محصلة كل هذه المسيرة وباجتياز امتحان التحديات الراهنة، ان التمسك بالثوابت القومية هو الطريق السليم وان الزوغان عنها يقود اصحابه الى مهاوي الانحدار.

وهذه مسألة نشارك رفاقنا البعثيين بقيادة الرئيس المناضل حافظ الاسد فرحتهم بان تنتصر المبادىء والثوابت ولا تلتوي امام الاعصار الذي عصف بالمنطقة في ظل مناخ الشرق اوسطية المخادع وعقود السلم الاسرائيلي حين اخذ البعض يلوّح بضرورة التأقلم مع ميزان القوى على حساب ميزان القيم وهجران المبادىء والثوابت، ليحصد المراهنون على هذا السراب، الحصاد المرّ وقبض الريح ولينتصر المتمسكون بالثوابت القومية.

انه انتصار للمبادىء بالصمود على ثوابتها.

قبل شهر او شهرين تحركت الدبلوماسية السورية لتنذر وتحذر من خطر التمادي في التنازلات داعية لوقف التطبيع والتحلي بالصمود.

وها ان هذه السياسة قد تكللت باجماع عربي قضى بوقف التطبيع مع العدو والغاء مكاتب تمثيله واعادة للمقاطعة العربية اعتبارها. ونأمل ان تكون هذه خطوة على طريق استئناف مسيرة التحرير، فلا ينتكس عنها احد من العرب بعذر او تبرير لاقل مناورة من العدو المخادع والضغوط الاميركية المصاحبة.

ان احد اهمّ مظاهر الاحتفال باليوبيل الخمسين لحزب البعث العربي الاشتراكي، ان سياسة قيادته هي التي تصدّرت الاجماع العربي بينما الشرق اوسطية تلفظ انفاسها واتفاقات الاذعان تتهاوى. وهو ما حذّر منه ونبّه الرئيس الاسد في احلك الظروف قتامة واشدها ظلمة وظلاما.

ونحن العقائديين القوميين الذين نشأنا على مبدأ الصراع القومي في سبيل الامة والوطن، نشارك رفاقنا البعثيين في هذا اليوم، يوم الثبات على المبادىء، يوم انتصار المبادىء على التفريط، لان المبادىء القومية وحدها تنير طريق الصراع المصيري الطويل مع الغاصب العنصري الاستيطاني.

لمجدك يا سورية يطيب النضال والصمود.